روز اليوسف

الوردة المشاغبة «فاطمة التى لا تنسى»

- ماتت أمها وهاجر أبوها وتركها أمانة عند الجيران، فصارت «روزالى»
- إمرأة تحدت كل عوامل الضعف
- خليط عجيب من الصفات الإنسانية المتشابكة.
- سارة برنارد الشرق وأميرة الصحافة المصرية
- ملامحها الرقيقة كانت تخفى إرادة فولاذية.
- عملت بالتمثيل وأصدرت مجلتى روز اليوسف وصباح الخير.
- لم تدخل مدرسة، وصارت كاتبة وذواقة للشعر.

يصرّ البعض أن يقاوم الجلبة التى تحيط بحياته وتقسو عليه لتطرحه أرضاً، بأن يحدث حول تلك الجلبة جلبة من صنع يديه، ويجعلهما تتعاركان إلى أن يمضى من الدنيا وسط ضجيجهما الصاخب.

من أولئك امرأة عرفناها باسم «روز اليوسف».

روز اليوسف أو فاطمة اليوسف كما أرادت أن يُطلق عليها فى أواخر أيام حياتها امرأة تحدت كل عوامل الضعف فى الحياة: تحدت أولاً ظروف نشأتها القاسية فى ظل اليتم والغربة، ثم تحدت العادات والتقاليد وكسرت من حولها الطوق الحديدى.

يصفها من عرفها بأنها خليط عجيب من الصفات الإنسانية المتشابكة، فهى صلبة كالصخر، ورقيقة كالعصفور الصغير، تكون طيبة القلب يمكن استعطافها بكلمة رقيقة، ثم فجأة تصبح عنيدة مشاغبة، تتحدّى وتثور وتشجب.

إنها امرأة لا تنسى، تقول عن نفسها:

«كلنا سنموت.. ولكن هناك فرقاً بين شخص يموت وينتهى وشخص مثلى يموت ولكن يظل حياً بسيرته وتاريخه».

عرفت «روز اليوسف» عند ولادتها باسم فاطمة محمد محيى الدين اليوسف، وكانت طفلة جميلة عاشت مع والدها ووالدتها فى لبنان حياة ناعمة مستقرة، ليتبدل كل هذا عندما تتوفى الأم، ويضطر والدها للسفر إلى اسطنبول ويتركها «أمانة» لدى جيرانه الذين صانوا تلك الأمانة طالما كان الوالد يرسل إليهم بالأموال، ولكن ما أن نفدت تلك الأموال، وغابت أخبار الأب حتى تغيرت تلك المعاملة تغيراً جذرياً، بل أبدت الأسرة استعدادها التام لترك الصغيرة تسافر

وحدها إلى البرازيل مع صديق للأسرة سيهاجر إلى هناك.

وقبل السفر أبت مربيتها أن تتركها تمضى دون أن تطلعها على السر، وخاصة بعد أن لمحت علامات البراءة والدهشة على وجه الصغيرة فأخبرتها أنها ليست ابنه هذه الأسرة وإنما هى فاطمة وليست «روزالى».

ولم تجد الطفلة أمامها مفراً سوى السفر، لكنها هربت من السفينة عندما رست في ميناء الأسكندرية، فكأن أضواء الشهرة نادتها فلبت النداء، وكانت القاهرة هى المدينة التى شهدت عبقرية «روز اليوسف».

سارة برنارد الشرق

أطلقت عليها هذا اللقب إحدى المجلات الفرنسية عندما نشرت صورها على غلاف أحد أعدادها، وكانت بداية روزا على مسرح «برنتانيا» حيث كانت المصادفة التى غيرت مجرى حياتها، إذ كانت تتسلل من حين لآخر إلى كواليس هذا المسرح حيث تبهرها أضواؤه ونجومه اللامعة، وفى إحدى تلك الزيارات المختلسة لمحها الفنان عزيز عيد، ورأى فيها موهبة فطرية لامعة، وعندما علم أنها وحيدة ويتيمة قرر أن يكفلها ويضمها إلى عائلته، إلى أن تأتى الفرصة، وجاءت الفرصة سريعاً عندما رفض كل أعضاء الفرقة أداء دور سيدة عجوز فى إحدى الروايات، فعرض عزيز عيد الدور عليها، فوافقت على الفور، ووقفت تمثل العجوز ببراعة على خشبة المسرح وهى مازالت فى العشرين من عمرها.

ثم أخذت «روز» تنتقل من فرقة إلى أخرى، وتؤدى أدواراً صغيرة لا تتعدى بضع كلمات كدورها فى رواية «نابليون والاليزية الحسناء» عندما كانت تقدم خاتما للبطلة، وتقول لها أربع كلمات «منى لك هذا الخاتم» ولكن سرعان ما جاءت الفرصة الحقيقية على مسرح رمسيس حيث ظفرت بلقب الممثلة الأولى أمام الفنان يوسف وهبى، وبلغت ذروة تألقها الفنى عندما مثلت دور مارجريت لجوته فى رواية غادة الكاميليا، وهو الدور الذى جعلها تتربع بنجاح على قمة التمثيل فى مصر.

أميرة الصحافة المصرية

اختارت «روز» سنة ١٩٢٥م لكى تعتزل التمثيل وهى فى ذروة نجاحها وتألقها مما أثار دهشة الكثيرين من معجبيها ومنافسيها، عدا القريبين منها، والذين يدركون شخصيتها جيداً فتفهموا قرارها، فقد كانت روز اليوسف امرأة متجددة تبحث دائماً عن الجديد ولا تبحث عن النجاح السهل ولا يستهويها التفوق الدائم، وإنما تفتش دائماً عن المزيد والمزيد من التحديات.

واقتحمت «روز اليوسف» مجالاً أكثر صعوبة وتحدياً من التمثيل، وهو ميدان الصحافة، واختارت الصحافة الفنية أولاً، وأصدرت مجلة «روز اليوسف» كمجلة فنية تهتم بأخبار الأدب والمسرح، ثم جعلتها مجلة سياسية تهاجم الملك وتخوض المعارك ضد الأحزاب، ولم تكن روز اليوسف الأسبوعية هى المطبوعة الوحيدة، وإنما أصدرت عدداً كبيراً من المطبوعات الأخرى، مثل روز اليوسف اليومية التى أصدرتها عام ١٩٣٥م لتكون جريدة يومية ويشهد الكثيرون أنها استطاعت بتلك الجريدة أن تنافس جريدة «الأهرام».

وأصدرت الكتاب الذهبى، ونشرت سلسلة كتب فكرية وسياسية متنوعة كما أصدرت مجلة «صباح الخير» عام ١٩٥٦ وجعلت لها طابعاً مختلفاً فجاءت خفيفة، وتخاطب الأسرة المصرية كلها وجيل الشباب خاصة.

المرأة الفولاذية

يكشف المتأمل فى شخصية «روز اليوسف» أن سر قوتها ونجاحها يتمثل فى روح التحدى والإرادة الفولاذية، التى تكمن خلف ملامحها الرقيقة وحديثها العذب.

فقد جعلتها تلك الروح تنفذ كل ما تريد بمجرد أن تحدد مرادها الحقيقى. ولم تفارقها إرادتها منذ أن كانت طفلة لا تتجاوز السابعة وحتى اللحظات الأخيرة من عمرها.

فالإرادة هى التى جعلت تلك الطفلة الصغيرة تترك السفينة لتجد نفسها وحيدة فى بلاد لا تعرفها، ولا يعرفها فيها أحد، وهى أيضا التى جعلتها تختار مجال التمثيل الذى كان من أصعب المجالات فى ذلك الوقت، حيث كان المجتمع المصرى يرفض أن تعمل بناته بالتمثيل، وكانت أدوار الفتيات يقوم بها ممثلون متنكرون، لكنها صممت أن تقتحم هذا الميدان حتى أصبحت ممثلة مصر الأولى دون أى شائعات أو فضائح.

الإرادة أيضاً هى التى جعلتها تختار ميدان الصحافة بعدما حققت ذاتها فى حقل التمثيل.

فرغم أنها لم تدخل إلا مدرسة الحياة التى استقت منها كل علومها بإرادة وعزيمة فولاذية، فإنها اقتحمت مجال الصحافة بنجاح ولم يكن رصيدها من التعليم سوى بعض القراءة والكتابة وعمليات الجمع والطرح البسيطة، لتصبح بعد وقت قليل قارئة ممتازة للشعر، بل كاتبة مقالات نارية تُمليها على بعض شبان الصحافيين كأحمد بهاء الدين وفتحى غانم، لأن خطها فى ذلك الوقت كان يشبه خط الطفل الصغير.

دفاع عن الفن المصرى

وبعد إنشاؤها جريدة «روز اليوسف» ضرباً من ضروب التحدى ففى أغسطس سنة ١٩٢٥، كانت تجلس فى محل «حلوانى» شهير بصحبة زوجها زكى طليمات، ومحمود عزمى عندما وقعت فى يدها مجلة «الحاوى» الفنية، التى كانت تنتقد الفنانين بعنف شديد ـ كما هو حال الصحافة الفنية فى مصر فى ذلك الوقت، فثارت روزا، وقررت أن تصدر مجلة فنية تجعلها منبراً للدفاع عن الفنانين المصريين وللرقى بالفن المصرى، ورغم صعوبة ذلك، إلا أن «روزا» نجحت واستطاعت أن تصدر مجلة «روز اليوسف» الفنية، بل ثابرت رغم الخسارة التى لحقت بها فى الأعداد الأول والثانى والثالث، واستمرت تغير فى سياستها التحريرية حتى لقيت النجاح فى الأسبوع الثامن والعشرين.

وما أن نجحت المجلة فى أن تصبح إحدى أقوى المجالات الفنية فى مصر حتى قامت روز بمحاولات لإصدار ترخيص لتجعلها مجلة سياسية.

وناضلت لإصدار هذا التصريح عندما رفضت وزارة الداخلية أن تمنحها إياه، فقابلت أحمد زيور ـ رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ـ والذى أصدر أمره الشهير:

«أعطوها ترخيص.. خلُّوها تاكل عيش»، وخرجت بذلك روز اليوسف السياسية إلى الوجود، وشنت على صفحاتها معارك طاحنة ضد حكومات إسماعيل صدقى، ومصطفى النحاس.

وزادت المعارك ضراوة لتهاجم الملك وأنصار الإنجليز بعنف شديد.

وبلغت الجرأة بروز اليوسف أن تقول لكريم باشا ثابت مندوب الملك، عندما جاءها مهنئًا بعيد ميلاد المجلة:

«قل لمولاك إننى أرفض التهنئة منه».

شهامة

كانت لدى روز اليوسف أخلاق صحافية راقية، فلم تستغل الصحافة لتحقيق أغراض شخصية أو لتكوين الثروات كما يفعل البعض، ولعل قصتها مع أم كلثوم دليل على ذلك.

فقد جاء لها شخص مجهول أعطاها خطابات غرامية من وإلى كوكب الشرق قيل أنها تبادلتها مع أحد المعجبين بها، وعندما علمت أم كلثوم بذلك أرسلت عبدالله أباظة يحمل خاتم «سوليتير» هدية إلى روز اليوسف لإعادة الخطابات دون نشرها، وقامت روز برد الهدية ورد الخطابات دون أى مقابل وأكرمت رسول أم كلثوم وآحسنت لقاءه.

وكانت لبنانية الأصل لكنها أحبت مصر بكل إخلاص، فخاضت معارك سياسية طاحنة ضد الفساد فى مصر، لتصبح تلك الحسناء نزيلة دائمة فى المعتقلات.

وكانت لها علاقات بالضباط الأحرار، وكانت تأوى الرئيس السابق أنور السادات (أحد الضباط الأحرار) فى المطبعة، لتخفيه عن أعين رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه بتهمة الشروع فى قتل مصطفى النحاس.

رحيل مفاجئ

أمضت روز حياتها فى سلسلة من التحديات بل إن من شهدوا لحظاتها الأخيرة يقسمون بأنها كانت تتحدى الموت بثبات وإيمان بينما رسمت على وجهها ابتسامة رضا.

فقد كانت مع خديجة هانم ـ صديقتها وزوجة محاميها ـ فى سينما ريفولى عندما أحست بألم شديد فى صدرها، فتحاملت على نفسها وطلبت من صديقتها أن تعود بها إلى منزلها، وما أن دخلت إلى غرفة نومها حتى نامت على فراشها بهدوء لتلقى ربها وقد حققت أمنيتها الأخيرة بأن تموت على فراشها وكان ذلك سنة ١٩٥٨.

تزوجت روز اليوسف ثلاث مرات، وكان أول أزواجها محمد عبد القدوس الذى أنجبت منه ابنها الوحيد الصحافى والروائى الشهير إحسان عبد القدوس، وكان زكى طليمات زوجها الثانى، بينما كان الثالث قاسم قاسم أمين حفيد الكاتب والمصلح الاجتماعى المعروف بلقب نصير المرأة، وقد دام زواجها ١٧ عاماً وتوفيت وهى زوجته، وأوصت أن تدفن فى مقابر أسرته.